سورة إبراهيم

[الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾

اللغة

العزيز الغالب. و الحميد المحمود .. و الويل الهلاك. و يستحبون يختارون و يؤثرون. و بلسان قومه بلغتهم.

الإعراب

كتاب خبر لمبتدأ محذوف أي هذا كتاب. و جملة أنزلناه صفة لكتاب. والى صراط العزيز بدل من قوله الى النور باعادة حرف الجر. و اللّه الذي «الله» بدل من العزيز، و الذي له ما في السموات الخ. صفة للّه أي مالك السموات و الأرض و ما فيهما. و له خبر مقدم و ما مبتدأ مؤخر، و الجملة صلة الموصول. و ويل مبتدأ، و للكافرين خبر. و الذين يستحبون عطف بيان من الكافرين أو صفة أي المستحبين. و عوجا مصدر في موضع الحال أي معوجين ضالين. و يجوز أن يكون عوجا مفعولا به إذا قدرت و يبغون لها العوج. فيضل بالرفع، و لا يجوز النصب بالعطف على ليبين، حيث يصير المعنى ان اللّه أرسل الرسول ليضل.

المعنى

﴿ الر ﴾ تقدم نظيره في أول سورة البقرة. ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾. المراد بالكتاب القرآن، و أنزلناه اليك الخطاب لمحمدﷺ، و بإذن ربهم أي بأمر اللّه تعالى، و تدل الآية بوضوح على ان الهدف الأساسي من إرسال محمدﷺ و انزال القرآن عليه هو ان يجند بدعوته كل طاقات الناس للعمل متكاتفين متضامنين من أجل الانسانية و خيرها و اطمئنانها، لأن إخراج الناس من الظلمات الى النور لا يتم بالدعوات و الصلوات، و انما يكون بالجهاد

الجماعي لا الفردي، و كفاح المنظمات لا الأفراد، كفاحهم ضد المستغلين و المستثمرين، و ضد الجهل و الخرافة، و ضد الأوضاع الفاسدة، و التقاليد البالية. و بالفعل آخى محمدﷺ بين أصحابه، و بث فيهم روح الصفاء و المحبة، و روح الفداء و التضحية لإعلاء كلمة اللّه و الانسانية، و جعل منهم- و هم الأجلاف الجاهليون- رسل خير و علم و حضارة .. و بهذه المناسبة ننبه الأذهان الى الدجالين و الانتهازيين الذين يشجعون الخرافة، و يناصرون الطغاة باسم الدين .. ان هؤلاء من أعدى أعداء اللّه و رسوله، لأن الدين نور، و الخرافة ظلمات، و الدين صراط اللّه الحميد، و الظلم صراط الشيطان الرجيم.

و تسأل: تقول الآية ٣٣ من سورة التوبة: «هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله و لو كره المشركون». و معنى هذا في ظاهره ان اللّه أرسل محمدا بقصد أن يكون دينه فوق الأديان، فما هو وجه الجمع بين هذه الآية و بين قوله تعالى: ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ ﴾؟.

الجواب: أولا ان المراد بالدين في قوله: ليظهره على الدين هو الشرك بدليل قوله: و لو كره المشركون. ثانيا: ان الأديان في عهد محمدﷺ كانت كلها ظلمات، حتى السماوية منها لعبت بها أيدي التحريف. ثالثا: ان إعلاء دين محمد هو إعلاء للحق الذي يعلو و لا يعلى عليه، و مهما يكن فإن أي مبدأ ينتفع به الناس بجهة من الجهات فانه يلتقي في هذه الجهة مع دين اللّه، و دعوة محمد رسول اللّهﷺ.

﴿ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ ﴾. تكرر هذا في كتاب اللّه عشرات المرات، و القصد التذكير بأن اللّه هو خالق الكون، و المسيطر على من فيه و ما فيه. ثم ذكر سبحانه جزاء الكافرين، و طرفا من صفاتهم:

١- ﴿ وَ وَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ ﴾. هذا وعد و وعيد للكافر على كفره، و ان جزاءه الهلاك و العذاب الأليم، قال الرازي: انما خصهم بالويل لأنهم يولون من العذاب، و يقولون: يا ويلاه.

٢- ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ ﴾. هذا أول وصف للكافرين و هو انهم يؤثرون الباطل على الحق، و الظلم على العدل، و الفساد على الصلاح .. و كل من كان كذلك فهو كافر، أو يلتقي مع الكافرين في عمله، و عليه ما عليهم من اللعنة و العذاب، و ان صلّى و صام، و حج الى بيت اللّه الحرام.

٣- ﴿ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فيمنعون الناس عن طريق الحق و الهداية، و كانوا بذلك ضالين مضلين، و فاسدين مفسدين.

٤- ﴿ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴾. و عوجا تشير إلى انهم يتوصلون الى غاياتهم بأساليب ملتوية و محرمة، كالكذب و الغش و المؤامرات و التعاون مع الطغاة، و لا يختص هذا الوصف

بالكافرين و المشركين، فان كثيرا من المسلمين يكذبون و يخونون و يتآمرون مع أعداء اللّه و الوطن على عيال اللّه و مقدّراتهم .. و هؤلاء شر مكانا من الكافرين و أضل سبيلا. و قوله تعالى: في ضلال بعيد معناه انهم أمعنوا في الضلال و الفساد، حتى بلغوا غايته.

﴿ وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ فيفهموا عنه، و تتحقق الغاية من رسالته، و لو وجدت لغة انسانية عامة تفهمها جميع القوميات لأرسل بها محمدﷺ لأنه رسول اللّه الى الناس جميعا في كل زمان و مكان .. و ينبغي التنبه الى الفرق بين قوله تعالى: و ما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه، و بين القول: ما أرسلنا رسولا الا الى أهل لغته، فالصيغة الأولى لا تمنع ان يكون الرسول عاما، و لغته خاصة، على عكس الصيغة الثانية، حيث تحصر رسالة الرسول بقومه وحدهم .. انظر تفسير الآية ٢ من سورة يوسف.

﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾. أرسل اللّه رسله الى عباده لانقاذهم من الجهالة و الضلالة، فمن استمع و أطاع فهو المهتدي، و من أعرض و عصى فهو الضال، فالهداية- اذن- تقاس بطاعة اللّه، و الضلال بمعصيته .. و لو ان اللّه لم يشرع أحكاما، و لم يرسل رسلا لتبليغها لما كانت الطاعة و المعصية و لا الهدى و الضلال، و لكنه تعالى شرّع و أرسل، فنتج عن ذلك الطاعة و المعصية و الهدى و الضلال، و بهذا الاعتبار صحت نسبة الهدى و الضلال اليه جلت حكمته. أنظر ج ١ ص ٧٠ و ج ٢ ص ٣٩٩.

[الآيات ٥ الى ٨]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَ قالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)

اللغة

يسومونكم أي يذيقونكم. و يستحيون نساءكم أي يستبقوهن أحياء للاسترقاق. و تأذن من الأذان و هو الاعلام.

الإعراب

ان اخرج «ان» مفسرة بمعنى أي. و جملة يسومونكم حال من آل فرعون. و في ذلكم بلاء مبتدأ و خبر. و إذ تأذن معطوف على إذ أنجاكم. و لئن شكرتم اللام للتوطئة تدخل على الشرط لتدل على ان الجواب له و للشرط معا. لأزيدنكم اللام و ما دخلت عليه سادان مسد جواب القسم و الشرط.

المعنى

﴿ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا- الدالة على نبوته- أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ ﴾. عاد الحديث الى موسى عليه السلام و بني إسرائيل الذين أقرحوا قلبه، و أدموا فؤاده، عاد الحديث اليهم، و قد تكرر فيما سبق عشرات المرات، و لا أعرف سرا لتكرار الحديث عنهم أكثر من غيرهم الا انهم قد شذوا عن الناس، كل الناس طبيعة و عملا، كما أشرت فيما تقدم، و لا أخفي اني أشعر بعبء ثقيل عند تفسير الآيات التي فيها اسم بني إسرائيل.

﴿ وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾. و أظهر هذه الأيام، و أعظمها نعمة عليهم يوم أنجاهم اللّه من عذاب فرعون و حررهم من الرق و العبودية .. للّه من حكم .. ﴿ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .. صبرا على بلائك أملا بنصرك و آلائك .. ذلك اشارة الى التذكير، و المراد بالآيات هنا العبر و العظات، و من الواضح ان الذي يتعظ و يعتبر هو المؤمن حقا الذي يشكر عند الرخاء، و يصبر عند البلاء، مع الجد و الاجتهاد في الخلاص مما يعانيه.

﴿ وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾. ذكّر موسى عليه السلام بني إسرائيل بما صنعه فرعون بهم من الذبح و الاسترقاق، و بنعمة الخلاص من ذلك، و أمرهم أن يذكروا اللّه و يشكروه على هذه النعمة .. و لكنهم لم يذكروه و لم يشكروه، بل كفروا باللّه، و جحدوا نعمته، و تمردوا عليه و على نبيهم موسى، و قالوا له: أرنا اللّه جهرة، و قالوا له: اذهب أنت و ربك فقاتلا .. و مروا على قوم يعبدون أصناما لهم، فقالوا، يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، ثم عبدوا من دون اللّه عجلا جسدا له خوار مكافأة للّه الذي أنجاهم من عذاب فرعون .. و لما يئس منهم موسى، و ضاق بهم ذرعا توجه الى اللّه و قال: ربي اني لا أملك الا نفسي و أخي فافرق بيننا و بين القوم الفاسقين .. فأي عجب بعد هذا إذا تنكر اليهود لنعمة المسلمين عليهم يوم نبذهم العالم، حيث لا أمريكا و لا انكلترا و لا المانيا الغربية تتخذ منهم سمسارا مخلصا، و كلبا حارسا للاستعمار و النازية؟. و مر نظير هذه الآية في ج ١ ص ٩٨ الآية ٤٩ من سورة البقرة.

﴿ وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ ﴾. المراد بالكفر هنا الكفران، و هو عقوق المنعم و جحود نعمته، لأن الحديث عن جحود بني إسرائيل لأنعم اللّه، و لأن الشكر يقابله الكفران، لا الكفر، و قد ذكرا في آية واحدة. و قال المفسرون أو الكثير منهم: المراد ان اللّه إذا أنعم على عبده بنعمة فشكرها و اعترف للّه بها أدام اللّه عليه هذه النعمة و ضاعفها، قالوا هذا أخذا بالقول المشهور: «بالشكر تدوم النعم».

و في رأينا ان المراد بزيادة النعمة هنا زيادتها في الآخرة، لا في الدنيا، لأنه من المؤكد ان المراد بالعذاب الشديد على الكفران عذاب الآخرة، فيكون الأجر على الشكر كذلك، و ثبت عن رسول اللّه ﷺ انه ساوى في العطاء بين الصالح و الطالح، و قال الإمام علي عليه السلام: لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف و انما المال مال اللّه؟ .. هذا، الى أنا نشاهد الأموال تتراكم و تتدفق على الطغاة كلما ازدادوا عتوا و طغيانا .. أجل، لو كان المراد بالشكر المحافظة على المال و حسن تدبيره و استثماره لكان لقول المفسرين وجه، و لكنه خلاف الظاهر، و لا قائل به حتى من المفسرين أنفسهم.

﴿ وَ قالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾. و الحمد للّه لا لغيره، و الاستغناء به لا بسواه، و بدل هذا القول من موسى على حرقته و يأسه من بني إسرائيل و هدايتهم.

[الآيات ٩ الى ١٢]

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَ قالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ ما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَ ما لَنا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَ قَدْ هَدانا سُبُلَنا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

اللغة

شك مريب مثل ظل ظليل، و عجب عجيب و أعجب أي قوي، و ليلة ليلاء، و ليل أليل أي طويل و شديد السواد. و السلطان الحجة و البرهان.

الإعراب

قوم نوح بدل من قبلكم، و ما بعده معطوف على قوم نوح. و جملة لا يعلمهم إلا اللّه حال من الذين من بعدهم. و قال كثيرون، منهم الزمخشري و البيضاوي قالوا: انها معترضة. و لم ندرك وجه الاعتراض لأنه لا يكون إلا بين أمرين يطلب كل منهما الآخر، و لا شيء من ذلك هنا لأن جملة جاءتهم رسلهم استئناف لا محل لها من الاعراب، فكأن سائلا يسأل: و ما هو نبأ الذين من قبلهم؟.

فأجاب: جاءتهم رسلهم الخ. و في أفواههم قيل: في هنا بمعنى الى، أي الى أفواههم. أفي اللّه شك مبتدأ و خبر، و الاستفهام للإنكار، و فاطر صفة للّه.

و المصدر المنسبك من ان نأتيكم بسلطان اسم كان، و لنا خبرها. و ما لنا «ما» استفهام في موضع رفع بالابتداء، و لنا خبر، و المصدر من ألا نتوكل مجرور بفي محذوفة. و قال أبو البقاء: يجوز أن يكون حالا أي غير متوكلين.

المعنى

﴿ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾. سياق الكلام يدل على ان هذا خطاب من موسى عليه السلام لبني إسرائيل، لا من محمد لمشركي العرب أو غيرهم كما قيل. و المعنى ان موسى قال لبني إسرائيل واعظا محذرا: لقد سمعتم بطوفان نوح، و بالقواصم و العظائم التي حلت بعاد و ثمود، و كثير غيرهم مما لا يحيط علما بعددهم إلا اللّه .. فعل سبحانه بهم ذلك لأنهم عصوا الرسل و تمردوا على دعوتهم، أفلا تعتبرون و تتعظون بالأمم الخالية؟. قال هذا موسى لقومه، و أكثر من هذا، و لكن إسرائيل هي هي أولا و آخرا.

﴿ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ ﴾. كل رسول من اللّه الى عباده لا بد أن يكون مزودا منه تعالى بحجة قاطعة تدل على انه موفد منه اليهم، أشبه بالسفير يقدم أوراق اعتماده من دولته للدولة التي انتدب سفيرا لديها، و على هذا يكون المراد بالبينات المعجزات الدالة على نبوة الأنبياء و رسالتهم ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ ﴾ الضمير يعود الى قوم نوح و من بعدهم ممن تقدم ذكرهم، ورد اليد الى الفم كناية عن شدة الغيظ و الإمعان في الاعراض، و مثله: ﴿ عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ (١١٩ آل عمران). ﴿ وَ قالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾. ارتاب المشركون أو أظهروا الارتياب في صدق أنبيائهم، و كانوا من قبل يعترفون لهم بالصدق و الإخلاص .. و لما ذا؟. لا لشيء إلا لأن الأنبياء دعوهم الى التزام الحق و العدل، و ترك الظلم و الباطل .. و هذا هو بالذات منطق الانتهازيين قديما و

حديثا .. ينكرون اليوم ما اعترفوا به بالأمس و بالعكس، و السر يكمن في الأرباح و المكاسب، فهم معها أينما كانت و تكون ..

﴿ قالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ﴾؟. أجل، انه لأعجب العجب أن يشكوا في موضع الايمان، و يؤمنوا في موضع الشك .. لقد جحدوا بخالقهم و وحدانيته، و آمنوا بالأحجار و عبدوها من دون اللّه، و هي تحت أيديهم تبول عليها الكلاب و الذئاب .. ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾. تعالى اللّه ما أكرمه و أحلمه .. يدعو عباده الى عفوه و رحمته، و يتولون عنه إلى ما يضرهم و لا ينفعهم ﴿ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ و لا يعجل العقوبة، بل يمهلكم لتؤوبوا الى الرشد و الهداية.

﴿ قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ﴾ يدل هذا القول على مدى تفكيرهم، و انهم يذهبون فيه الى ان الناس العاديين لا يحق لهم أن يتولوا القيادات و المناصب الرفيعة و ان بلغوا من الإخلاص و الصدق و التضحية أعلى المراتب ﴿ تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا ﴾ .. فآباؤهم أعز عليهم من اللّه، و تقليدهم على الضلال أحق و أولى من طاعة اللّه على الهدى، حتى و لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا و لا يهتدون.

﴿ فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ ﴾. لقد أتاهم الرسل بالحجج البالغة، و المعجزات الدالة على صدقهم، و لكن المشركين أرادوا معجزات خاصة من النوع الذي أشار اليه سبحانه بقوله: ﴿ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ (١٢ هود)، و قوله ﴿ وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً ﴾ (٩٠ الأسراء). فهم يطلبون المعجزة و لكن من خلال البطون، لا من خلال العقول.

﴿ قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ﴾. ان اللّه حكيم، و لأنه حكيم و عليم فلا يمن برسالته إلا على من هو كفؤ لها يتحلى بالصفات و المؤهلات لحملها و أدائها: ﴿ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ، اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ ﴾ (١٢٤ الأنعام). ﴿ وَ ما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾. انظر تفسير الآية ٣٨ من سورة الرعد، و الآية ٣٧ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٨٤، و الآية ١١٨ من سورة البقرة ج ١ ص ١٨٩.

﴿ وَ ما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَ قَدْ هَدانا سُبُلَنا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾. و نلخص المعنى- على وضوحه و غناه عن التفسير- بأن الرسل قالوا للمشركين: نحن نبلّغ عن اللّه، و ندعو اليه، و لا نكترث بمن أدبر و تولى، و لا نبالي بما يصيبنا من أذاكم في هذا السبيل، لأننا

على ثقة من ربنا، و بينة من أمرنا، و ان دل هذا التساؤل: «و ما لنا الا نتوكل على اللّه» ان دل هذا على شيء فإنما يدل على ان الأنبياء لا يرون شيئا في الوجود إلا اللّه و في اللّه وحده.

[الآيات ١٣ الى ١٧]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَ خافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَ لا يَكادُ يُسِيغُهُ وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ما هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

اللغة

الملة الدين. و استفتحوا طلبوا الفتح و النصر على الأعداء. و الجبار إذا وصف به تعالى فمعناه العالي الذي لا يناله شيء، و إذا وصف به الإنسان فمعناه المتعالي المتكبر، و قد يطلق على من يصلح الأمور و يجبر كسرها. و العنيد مبالغة المعاند و هو الذي يخالف الحق مع علمه به. و الصديد القيح المختلط بالدم. و يسيغه يبتلعه.

الإعراب

أو لتعودن «أو» بمعنى إلا ان، مثل قولك: لا أذهب أو تفعل كذا أي الا ان تفعل كذا. و استفتحوا عطف على فأوحى اليهم ربهم. و ما هو بميت «هو» مبتدأ و الباء زائدة اعرابا و ميت خبر.

المعنى

﴿ وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا ﴾. دعا الأنبياء دعوة الحق و العدل بالحكمة و الموعظة الحسنة، و لم يكرهوا أحدا على دينهم و عقيدتهم لأن دعوتهم تقوم على أساس عدم الإكراه في الدين، و ان كانت في طبيعتها ثورة على المعتدين و المستغلين، و من هنا أعلن هؤلاء الثورة المضادة على الأنبياء، و خيّروهم بين النفي و الارتداد الى الكفر .. و سبق نظير ذلك في الآية ٨٨ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٦٣.

﴿ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي- أي وجودي و سطوتي- وَ خافَ وَعِيدِ ﴾. بعد أن بلغ الأمر بالمشركين الى تهديد الأنبياء بالنفي إذا لم يشركوا

مثلهم جاءت ارادته تعالى لتضرب الطواغيت الضربة القاضية، و تورث المؤمنين أرضهم و ديارهم و أموالهم: ﴿ وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ ﴾ (٢٧ الأحزاب).

أنصاف الحلول

و تجدر الاشارة بهذه المناسبة الى أمرين:

الأول: انه جل و علا بعد أن ذكر تطاول أهل البغي و الفساد، و تماديهم في الضلال قال: ان مصيرهم الهلاك و الدمار نتيجة لبغيهم و ضلالهم، و ان عاقبة المتقين النصر و التمكين في الأرض، و هذا هو منهج القرآن في ذكر المسببات مع أسبابها، و النتائج مع مقدماتها، و لهذه الطريقة فوائدها، منها الترغيب في الحق و عمل الخير، و الترهيب من الشر و الباطل، و منها أن يتفاءل الإنسان بحسن العاقبة و انتصار الحق، حتى و لو أخذ الباطل مأخذه و ان لا يستسلم لأهله و ان تطاولوا و صالوا و جالوا لأن الكرة ستكون عليهم في النهاية و ان طال الأمد. و قد جرى على هذه الطريقة الكثير من الخطباء و أصحاب الأقلام، فإنهم يذكرون اساءة من أساء، ثم يعقبون عليها واثقين بأن الشر لا يجزى به الا فاعله.

الأمر الثاني: ان اللّه سبحانه يتدخل بإرادته لنصرة المحقين على شريطة أن لا يرتدوا عن الحق، و لا يشكّوا فيه، و لا يساوموا عليه، و لا يرضوا بأنصاف الحلول، و يلتمسوا القليل من حقهم بالكثير من باطل أعداء اللّه و أعدائهم، و قد دلت التجارب على ان أنصاف الحلول لا يستفيد منها الا من اعتدى و أفسد في الأرض، و انها أبدا و دائما تأتي في صالح المبطلين، لأن أي تنازل عن الحق فهو ربح للغاصب المبطل، و خسران للحق و أهله .. و هنا يكمن السر في صلابة الإمام علي بن أبي طالب في الحق، و رفضه انصاف الحلول بشتى صورها و أشكالها.

﴿ وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ ﴾. و الصديد القيح المختلط بالدم، و هو هنا كناية عما يصعب شربه و تجرعه لنتنه و قذارته، أو مرارته و حماوته، أو لذلك كله، أما ضمير استفتحوا فقيل: انه يعود الى الرسل. و قيل: الى المشركين. و قيل: اليهما معا. و المعنى يصح على كل الوجوه، لأن العاقبة كانت كما يجب أن تكون، نصر المؤمنين، و خزي الكافرين .. هذا، الى ان الأنبياء استنصروا اللّه سبحانه: ﴿ قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٣٠ العنكبوت). و قال المشركون يوم بدر: اللهم انصر أعلى الجندين. فأجابهم اللّه بقوله: ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ ﴾ (١٩ الأنفال).

﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَ لا يَكادُ يُسِيغُهُ ﴾ لنتنه و قذارته، و حرارته و مرارته ﴿ وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ ﴾ و هنا مضاف محذوف أي تأتيه أسباب الموت تحيط به من الجهات الست: شماله و يمينه و خلفه و أمامه و

فوقه و تحته ﴿ وَ ما هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ و لو مات استراح، و انقطع عنه العذاب، و قد أراد اللّه له الدوام و الخلود فيه: ﴿ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها ﴾ (٣٦ فاطر).

﴿ وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ ﴾. و مما قيل في تفسير الغليظ هنا: ان العذاب يتجدد آنا فآنا، و حالا بعد حال، و كل حال أشد و أسوأ من سابقتها .. اللهم عفوا و لطفا بمن آمن بك و بجنتك و نارك، و لا يبرئ نفسه من معصيتك، و لكنه يطمع في رحمتك.

[الآيات ١٨ الى ٢١]

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾

اللغة

برزوا للّه ظهروا له. و مغنون دافعون. و محيص منجى و مهرب.

الإعراب

في اعراب مثل الذين كفروا أقوال، أرجحها عندنا و عند أبي حيان الأندلسي ان «مثل» مبتدأ أول و أعمالهم مبتدأ ثان، و كرماد خبره، و المبتدأ الثاني و خبره خبر المبتدأ الأول. و في يوم متعلق بمحذوف حالا من الريح. و عاصف صفة للريح، و فاعله محذوف أي عاصف ريحه. و ذلك مبتدأ و الضلال خبر، و هو ضمير فصل لا محل له من الإعراب. من العذاب متعلق بمحذوف حالا من شيء، و قدم الحال على صاحبه لأن صاحبه نكرة، و من شيء «من» زائدة عند أبي البقاء، لأنها في سياق الاستفهام، و هو شبيه بالنفي، و شيء مفعول مغنون لأنه بمعنى تمنعون، و التقدير هل تمنعون عنا من العذاب شيئا.

المعنى

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ ﴾. قال كثير من المفسرين: المراد من الآية ان الكافر لا يثاب على عمل البر، كالصدقة و نحوها .. و في رأينا ان كل من فعل الخير بدافع انساني فقد عمل اللّه أراد ذلك، أم لم يرد، و ليس من شك ان من عمل للّه فأجره على اللّه لأنه

عادل و حكيم، و أثابه بنحو من الانحاء، اما في الدنيا، و اما في الآخرة بتخفيف العذاب، و ليس من الضروري ان لا يدخله النار إطلاقا، فإن آلاء اللّه لا تحصى كما و لا كيفا. و تكلمنا عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ١٧٨ من سورة آل عمران بعنوان: «الكافر و عمل الخير» ج ٢ ص ٢١١.

و على هذا يكون معنى الآية ان أي انسان يعمل الخير بدافع تجاري، لا انساني كالذي ينفق على المشاريع الخيرية أيام الانتخابات، ان عمل هذا و من اليه ليس بشيء عند اللّه، بل هو أشبه بهواء في شبك، أو برماد تذروه الرياح، سواء أ كان العامل مسلما أو غير مسلم. قال الإمام علي عليه السلام: «اعملوا بغير رياء و لا سمعة فإنه من عمل لغير اللّه يكله اللّه الى من عمل له».

و تسأل: إذا كان هذا الحكم يعم الكافر و غيره فلما ذا ذكرت الآية الكافر وحده؟

الجواب: ان ذكر الكافر بالخصوص لا ينفي الحكم عن غيره، و انما خصص بالذكر لأنه أظهر الأفراد.

﴿ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾. ضمير لا يقدرون عائد لفظا على الكافرين، و عائد معنى على كل من عمل و يعمل البر بقصد تجاري، و المراد ان من عمل عملا ليس للّه و لا للانسانية فيه نصيب فانه لا ينتفع غدا بعمله، لأنه تماما كالرماد المتطاير في الهواء، و صاحبه ضال، بل و ممعن في الضلال، لأنه تجرد في عمله هذا عن كل سبب يربطه باللّه و الانسانية.

﴿ أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَ ما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾. معنى ألم تر ألم تعلم، و الخطاب موجه لكل من يقرأه و يسمعه. و كلمة الحق تشير الى أنه تعالى ما خلق شيئا إلا لحكمة اقتضت ذلك: ﴿ وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (٢٧ ص) .. بعد أن ذكر سبحانه الذين يعملون لغير اللّه قال انه في غنى عن الناس و أعمالهم، و لو شاء لأفناهم جميعا، و أتى بأمم غيرهم يعملون له وحده و لا يشركون به شيئا، لأنه على كل شيء قدير، و لا شيء أدل على ذلك من خلق الكون و عجائبه.

الظالم و المظلوم

﴿ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً ﴾. برزوا بلفظ الماضي، و المراد به الاستقبال لأنه محقق الوقوع، و المعنى ان الانس و الجان، و الملائكة و الشياطين، كل هؤلاء يظهرون للّه يوم القيامة، و ما من واحد منهم الا و هو يعلم علم اليقين انه قد تكشف للّه على حقيقته، حتى من كان يكفر به و بالبعث.

﴿ فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾. كل عاقل مسؤول عن عمله قويا كان أو ضعيفا، رئيسا أو مرؤوسا: ﴿ فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٩٣ الحجر)، بل و ما يقولون أيضا: ﴿ ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (١٨ ق).

فالتابع يسأل: هل اتبع الهدى أو الضلال؟. و هل عاضد و ساند المصلحين أو المفسدين؟

و أيضا المتبوع يسأل، و مسؤوليته أكبر و أعظم، لأنه مسؤول عن نفسه و عن غيره من الاتباع و الهمج الرعاع، فهل يحمل أوزاره و أوزارهم. و لست أعرف أحدا أعظم وزرا من هذا الطاغية المتبوع الا من تابعه و أعانه على ظلمه، و هو يعرفه على حقيقته .. ان ظلم الظالم ليس بأسوأ عند اللّه من صبر المظلوم على الظلم .. ان قتل المظلوم في سبيل حقه شهادة، و الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .. و هل جرّأ الظالم على الظلم إلا سكوت المظلوم عنه. و لو علم الظالم ان بين جوانح المظلوم نفسا «حسينية» لتحاماه. و مهما يكن، فان المراد بالضعفاء في الآية ضعفاء النفوس الذين يتبعون الظالم الضال، و هم على علم بظلمه و ضلاله، طمعا في جاهه أو ماله، أو جبنا و إيثارا للسلامة و الراحة، و في حكمهم في المسئولية و الجريمة من يتبع الضال على العمى، و تقليدا للجموع أو للأصدقاء و الأقارب. و قد صور سبحانه موقف التابعين لأهل الغي و الضلال عن علم أو جهل أعمى، صور موقفهم يوم الحساب مع الطغاة بهذا الحوار: قال ضعفاء النفوس و الهمم لرؤساء الدنيا و الدجالين من رؤساء الدين: كنا نأتمر بأمركم، و ننتهي بنهيكم .. و ها نحن الآن كما ترون بين يدي اللّه لا حول لنا و لا طول، يحاسبنا و يعاقبنا على طاعتنا لكم في تكذيب الرسل، و في معصية اللّه، فهل تدفعون عنا و لو يسيرا من عذاب اللّه و نقمته؟.

﴿ قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ ﴾. المراد بالهداية هنا النجاة و الخلاص من عذاب اللّه، لأن الجواب يأتي على وفق السؤال، و قد سأل التابعون متبوعيهم ان يخففوا عنهم يسيرا من العذاب، فأجابهم المتبوعون: لو استطعنا دفع العذاب لدفعناه عن أنفسنا. هذا هو المعنى المراد من الهداية هنا و لا يستقيم إلا به ﴿ سَواءٌ عَلَيْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ ﴾. حيث انتهى كل شيء، و لا يجدي جدال أو عتاب، لأن الدار دار حساب و عقاب، لا دار أقوال و أفعال.

[الآيات ٢٢ الى ٢٣]

وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ ﴿٢٣﴾

اللغة

المراد بالسلطان التسليط. و مصرخكم مغيثكم، يقال استصرخني فأصرخته.

الإعراب

وعد الحق من اضافة الشيء الى نفسه، مثل حب الحصيد و مسجد الجامع. من سلطان «من» زائدة و سلطان اسم كان. و المصدر من ان دعوتكم منصوب على الاستثناء المنقطع لأن دعاء الشيطان ليس بسلطان. و أشركتمون أصلها أشركتموني.

خطبة الشيطان

تكلمنا مفصلا حول فكرة إبليس و الشيطان في أول المجلد الأول، و في المجلد الثاني ص ٣٢٤، و مجملا عند تفسير الآيات التي اشتملت على ذكر الشيطان .. و نعود هنا الى الموضوع بقول أجمع و أوسع، لأن الآية التي نحن بصددها من أوضح الآيات دلالة على وجود الشيطان، و انه حقيقة ثابتة، و ان لم تتعرض الى كنهه و هويته، و فيما يلي نعرض الجهات التي تتصل بهذه الآية:

١- ذكر اللّه سبحانه في كتابه العزيز الشيطان بعبارات شتى، فتارة يقول عز من قائل: ان الشياطين من نوع الانس و الجن كما في الآية ١١٢ من سورة الأنعام: «شياطين الانس و الجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول».

و تومئ هذه الآية الى ان كل قول ظاهره الرحمة و باطنه فيه العذاب فهو من عمل الشيطان أيا كان قائله. و تارة يقول: ان للشيطان جنودا و قبيلا كما في الآية ٩٥ من سورة الشعراء: «و جنود إبليس أجمعون». و الآية ٢٦ من سورة الأعراف: «انه يراكم هو و قبيله من حيث لا ترونهم» و تدل هذه الآية ان الشياطين لا يحصى لهم عد، و انهم ليسوا من الأشياء التي ترى بالعين، و تلمس باليد. و ثالثا يقول: ان للشيطان قرناء و أولياء كما في الآية ٣٨ من سورة النساء: «و من يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا» و في الآية ٧٥ من سورة النساء: «فقاتلوا أولياء الشيطان» و هذا اللفظ بمفرده يدل على ان قتال الزائغين و جهادهم فرض و حتم، حتى و لو كانوا «مسلمين». و رابعا يقول جلت حكمته و كلمته: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ (٢٢٢ الشعراء) و تدل هذه الآية ان الشياطين هم الكذابون الأفاكون. أما وظيفة الشيطان و جنوده كما حددها القرآن فهي الإضلال و الإغواء للصد عن

سبيل الحق و الخير، لا بالجبر و الإكراه، بل بالوسوسة و التزيين، و بالإغواء و التمويه .. و من أجل هذا قلنا و نكرر القول: ان أي شيء يزين للإنسان عمل السوء، و يرغبه في الشر و الفساد عن طريق المغريات و المشوقات فهو شيطان رجيم و إبليس اللعين، سواء أ كان هذا الشيء المزين المضلل إنسانا أم مالا أم جاها أم كتابا أم صحيفة أم وسوسة و حديث نفس أم شيئا آخر يرى أو لا يرى .. هذه هي صورة الشيطان التي انعكست في ذهننا، و نحن نتابع و نتدبر آيات اللّه في كتابه، و نؤمن بها أيماننا به و برسوله .. و ما عدا ذلك من الجزئيات و التفاصيل ندعه لعلم اللّه، و ما نحن بمسؤولين عنه، و لا مكلفين به، و كل ما يجب علينا هو ان لا ننخدع بالمغريات، و لا نندفع وراء الشهوات، و لا نستمع للزائغين و المضللين، و إذا حدثتنا أنفسنا بشيء من ذلك، أو حاول مخادع أن يغرينا بالانحراف عن قصد السبيل تذكرنا اللّه و وعده و وعيده و وقفنا عند حدوده، بحيث نكون المثل الصالح لقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (٢٠٠ الأعراف). انظر ج ٣ ص ٤٤٠.

٢- ان في نفس الإنسان شهوات و غرائز، و هي أقوى من اي عامل يدفع به الى معصية اللّه و مخالفة أمره، لأنها تأتي من الداخل لا من الخارج، و من الباطن لا من الظاهر، فإذا لم يكن في داخل الإنسان و باطنه قوة أعظم و أصلب تردع الميول الشيطانية، و تكبح جماحها وقع الإنسان صريع الأهواء و المطامع لا محالة .. و ليست هذه القوة الرادعة هي العبادة و الصلاة، و لا العلم و التحقيقات، و لا الفضائل و الشمائل، لا شيء إلا التقوى مع الوعي على ان ينظر المتقي الواعي الى كل شيء من خلالهما معا، فالتقوى بلا وعي، و الوعي بلا تقوى كلاهما ليسا بشيء يقاوم المغريات، و يقف في طريق الشهوات .. فلقد رأينا الكثير من المتقين يجهلون أنفسهم و واقعهم، و يحسبون الهوى دينا، و الغرض ايمانا، و يصور لهم الوهم أو ابالسة الانس الحلال حراما و الحرام حلالا، و الى هؤلاء أشار سبحانه بقوله: ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ (١٠٤ الكهف). أما العلم و العقل بلا تقوى فهما المصدر الأول لكل رذيلة و فساد في الأرض .. و النتيجة الحتمية لذلك ان الواعي بلا تقوى، و المتقي بلا وعي كلاهما من مصائد الشيطان و شبائكه، و هذا الأخير أحب الى قلب إبليس و أعلى لديه مقاما.

٣- ﴿ وَ قالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾. كل شيء ما عدا اللّه سبحانه له بداية و نهاية، و قد تكون بدايته خيرا في ظاهرها، و نهايته شرا في حقيقتها، و بالعكس .. و من أجل هذا لا يسوغ الحكم على شيء عند ظهوره و بدايته ما دامت الغاية في عالم الغيب .. فلقد غبط الناس «قارون» لما خرج عليهم في زينته، و قالوا: انه سعيد و عظيم، حتى إذا انخسفت الأرض به و بداره و ماله قالوا: انه شقي و ذميم .. و

الدنيا بداية، و الآخرة نهاية، و فيها ينكشف القناع و الغطاء، و يعرف كل انسان مصيره و مآله، حيث لا تزييف و لا تحريف، و هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾.

٤- ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾. أما وعد اللّه فهو البعث و الحساب و الجزاء: ﴿ فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٩٣ الحجر). أما وعد الشيطان فهو على النقيض من وعد اللّه: لا بعث و لا حساب و لا جنة و لا نار: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٢٩ الأنعام).

هذا ما كان يقوله الشيطان لأوليائه في الحياة الدنيا حيث التزوير و التمويه، أما في اليوم الآخر حيث لا شيء إلا الحق و العدل فإن الشيطان يظهر على حقيقته، و يصدق في قوله و لهجته، و كان من قبل يعلم الناس الكذب و الإفك.

٥- ﴿ وَ ما كانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ أبدا لا حول و لا طول للشيطان باعترافه الا دعوة الباطل و الضلال و المكر و الخداع، و لا يستجيب له و لدعوته إلا ضعفاء العقول و النفوس و الإيمان، و قوله: و ما كان لي عليكم من سلطان هو بالحرف ما قاله اللّه له: ﴿ إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ ﴾ (٤٢ الحجر).

٦- ﴿ فَلا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾. و إذا كان الويل لمن كفّره النمرود فكيف بمن كفّره إبليس؟. و إذا تعوذ الناس من الشيطان فكيف بمن وبخه و تعوذ منه الشيطان؟ .. هذا هو مصير من يخذل الحق و الصالحين، و يناصر الفساد و المفسدين، و ينعق مع كل ناعق .. و قد رأينا كثيرا من شياطين الانس يغررون بالمراهقين و ضعاف العقول، و يغرونهم بالتخريب و اشاعة الفوضى، حتى إذا لقوا ما كسبت أيديهم قال لهم شياطينهم عين ما قاله إبليس لأتباعه و أوليائه عند الحساب و الجزاء.

﴿ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ الصارخ هو المستغيث، و المصرخ هو المغيث، و المعنى ان الشيطان يقول غدا لأتباعه: ما أنا بمغن عنكم شيئا، و لا أنتم مغنون عني شيئا، و ليست بيني و بينكم أية صلة ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾. يقول إبليس لمن استجاب له: لقد اطعتموني فيما دعوتكم اليه، و جعلتموني شريكا للّه في وجوب الطاعة، و أنا بريء من الشرك و ممن يشرك، حتى و لو جعلني للّه شريكا في شيء، أي شيء ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ﴾. هذه جملة مستأنفة و ليست من كلام الشيطان، و المراد بها الوعد و الوعيد، و يجوز أن تكون الخاتمة لخطبة إبليس .. و من الطريف ما جاء في بعض التفاسير من ان إبليس ألقى خطبته هذه على أهل النار من على منبر نصب له .. و لا بد- بطبيعة

الحال- أن يكون قد ألقاها بمكبر عظيم، لأن المستمعين، و هم جميع جنوده و أتباعه أكثر من عدد الرمل و الحصى و التراب.

﴿ وَ أُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ ﴾. بعد أن ذكر سبحانه الزائغين و عذابهم ذكر المستقيمين و ثوابهم كما هي طريقة القرآن الكريم. و مر نظير هذه الآية في سورة يونس الآية ١٠.

[الآيات ٢٤ الى ٢٧]

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ ﴿٢٧﴾

اللغة

قيل: المراد بالكلمة الطيبة كلمة التوحيد و الايمان، و بالكلمة الخبيثة كلمة الكفر و الإلحاد. و الصحيح ان المراد بالأولى كلمة الحق، أيّ حق، و بالثانية الباطل أي باطل. و ثابت راسخ. و في السماء كناية عن علو الشجرة و ارتفاع فروعها و أغصانها. و اجتثت اقتلعت و استؤصلت. و القرار الاستقرار.

الإعراب

كيف مفعول مقدم لضرب، و هي هنا بمعنى جعل. و كلمة بدل من «مثلا» و طيبة صفة لكلمة. و كشجرة صفة ثانية. و أصلها ثابت مبتدأ و خبر، و الجملة صفة أيضا لكلمة. و جملة تؤتي أكلها صفة لشجرة. و كل حين نصب على انها ظرف زمان، لأن «حين» ظرف فأعطيت حكمه. و لها خبر مقدم، و من زائدة اعرابا، و قرار مبتدأ مؤخر.

المعنى

﴿ أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾. قيل: المراد بالكلمة الطيبة هنا كلمة التوحيد: «لا إله الا اللّه» .. و ليس من شك ان التوحيد مصدر الحق و معدنه، و من التوحيد و الإخلاص للّه وحده أن نفسر الكلمة الطيبة بكل كلمة تنفع الناس، و تعود عليهم بالخير و الصلاح، و لو بجهة من الجهات، سواء أ كانت الكلمة للدين و الشرع، أم للعلم و الفلسفة، أم للأدب و الفن .. فأي انسان انتفع

الناس بقوله أو بعمله فهو يلتقي من هذه الجهة مع مبادئ الإسلام و الدين أيا كان و يكون .. و أفضل الكلمات و الأقوال هي كلمة الثورة، و الصرخة الغاضبة في وجوه حكام الجور، و من آزرهم من المأجورين و الرجعيين لأنهم أصل الداء، و مصدر البلاء، قال الإمام علي عليه السلام: «و ما أعمال البر كلها و الجهاد في سبيل اللّه عند الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر الا كنفثة في بحر لجي، و ان الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لا يقربان من أجل، و لا ينقصان من رزق، و أفضل من ذلك كله كلمة عدل عند إمام جائر» لأنه المصدر الأول لكل منكر، فمن جاهده و أنكر عليه فقد جاهد الآثام كلها مجتمعة في شخص هذا الحاكم الغاشم .. و في معنى كلمة الإمام علي هذه أحاديث عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله. و كل ما عند علي أمير المؤمنين فهو شعاع من شمس محمد سيد الخلق أجمعين. و لا شيء أدل على ان المراد بالكلمة الطيبة الكلمة المفيدة النافعة من تشبيهها بالشجرة الطيبة التي ﴿ أَصْلُها ثابِتٌ ﴾ لا تزعزعه الأعاصير، و لا تقوى عليه المعاول ﴿ وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ ﴾ بعيد عن أوباء الأرض و أقذارها ﴿ تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها ﴾ فلا تجود آنا، و تبخل آنا، كالتاجر يعطيك ان دفعت، و يمسك ان أمسكت، بل هي تعطي أبداً و دائما ﴿ وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فيشبه المعنى الغامض بالمعنى الواضح ليفهم الناس، كل الناس طريق الهدى فيتبعوه، و طريق الضلال فيجتنبوه.

﴿ وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾. كل كلمة تضر الناس و لا تنفعهم فهي خبيثة لعينة، سواء أ كانت من مسلم، أم من غير مسلم عظيم أم حقير، بل ان سكوت الكبير عن مقاومة الباطل، و مناصرة الحق يعد من أعظم الجرائم، و في الحديث: الساكت عن الحق شيطان أخرس، و كتب غاندي الى طاغور: «انك شاعر عظيم، و لكنك تلعب و البيت يحترق .. ان الأغنية الجميلة لا تشبع جائعا، و لا تشفي مريضا». ﴿ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ ﴾.

هذا أصدق مثل للباطل و أهله الذين يتعالون و يتعاظمون، و يخيل للجاهل انهم شيء ضخم، و ما هم الا كشجرة بلا أصول و جذور، فسرعان ما يصبح عاليها سافلها إذا هبت الريح.

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ ﴾. ليس المراد بالمؤمنين من قال: آمنت باللّه و رسوله و اليوم الآخر، ثم لم يقم حقا أو يدفع باطلا، بل المراد بالمؤمنين هنا من عناهم اللّه بقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (١٥ الحجرات). آمنوا و أعربوا عن ايمانهم بالجهاد و الفداء. أما إذا ادعوا الايمان باللّه، و لم يقاوموا الظلم و الفساد بجرأة و شجاعة فهم مرتابون لا مؤمنون. و معنى تثبيتهم بالقول الثابت في الحياة الدنيا ان اللّه سبحانه قد أخبرهم في كتابه و على لسان نبيه انهم في رعايته و عنايته، و

انه هو كفيلهم و وليهم و حافظهم و ناصرهم، كما شجعهم و أثنى عليهم بالصدق و الإخلاص، و ما اليهما من الفضائل، أما تثبيته لهم في الآخرة بالقول الثابت فهو قوله عز من قائل لهم يوم القيامة: ﴿ يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (٦٨ الزخرف).

﴿ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴾ بكفرهم و كذبهم و طغيانهم .. و القرآن الكريم يستعمل الظلم كثيرا بمعنى الكفر و الشرك، و لكن المراد بالظلم هنا من ظلم نفسه بالكفر، و ظلم غيره بالعدوان و الافتراء، كما ان المراد بالإضلال هنا العذاب، تماما كقوله تعالى: ﴿ كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ ﴾ (٣٤ غافر). ﴿ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ ﴾ من ثواب الصالحين و عقاب الفاسدين، و لا راد لمشيئته. قرأت، و أنا بصدد تفسير هذه الآية كلمة في جريدة «الأهرام» المصرية عدد ٢١ شباط ١٩٦٩ بعنوان «هل تشهد الانسانية نهاية حرب الذرة و بداية حرب الجراثيم»، جاء فيها: «لقد ظهر في الأفق سلاح جديد أشد خطرا، و أكثر قسوة من الأسلحة النووية، و هو سلاح الجراثيم، و نشر الأوبئة، و ان من آثار هذا السلاح انه إذا مس الإنسان ذرة منه تقلصت عضلاته، و برزت عيناه، و مات في الحال، و ان لدى أمريكا و بريطانيا معامل و مصانع تنتج هذا السلاح، و تعدانه الى وقت الحاجة، فإذا ما اتفقت الدول على حظر انتشار الأسلحة النووية بسبب الضغط العالمي استعملت الدولتان أوبئة الفناء و الدمار كبديل عن القنابل الذرية و الهيدر و جينية» .. فهل يجتمع الايمان باللّه مع النية و العزم على استعمال هذا السلاح؟.

و هل صلاة الذين يؤازرون أصحاب هذه النية و العزم تجديهم نفعا عند اللّه؟.

[الآيات ٢٨ الى ٣١]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ ﴿٢٩﴾ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خِلالٌ ﴿٣١﴾

اللغة

البوار الهلاك. و يصلونها يقاسون حرها. و المراد بالبيع هنا الفدية، و بالخلال الصداقة.

الإعراب

كفرا مفعول ثان لبدلوا. و جهنم بدل من دار البوار. و تمتعوا مجزوم بجواب الطلب، و هو قل. و يقيموا الصلاة مجزوم بلام محذوفة أي ليقيموا. و سرا قائم مقام المفعول المطلق أي إنفاقا سرا و علانية معطوف عليه، و يجوز أن يكونا مصدرين في موضع الحال، أي مسرين و معلنين.

المعنى

﴿ أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ ﴾. ضمير أحلوا يعود الى قادة الكفر و الضلال، و المراد بنعمة اللّه الايمان و الهداية، و المعنى ألا تعجب يا محمد، أو أيها السامع و القارئ من حال قادة الكفر و الضلال الذين اختاروا الضلالة على الهدى، و الجحيم على النعيم، فحلوا فيها هم و من اتبعهم، و كانوا لها حطبا. و في معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿ أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١٥ البقرة). و نقل الطبري في تفسير هذه الآية ان عمر بن الخطاب قال: «الذين بدلوا نعمة اللّه كفرا، و أحلوا قومهم دار البوار هما الأفجران من قريش: بنو المغيرة، و بنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، و أما بنو أمية، فمتعوا الى حين».

﴿ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾. جعلوا للّه شركاء يحبونهم كحبه، و يعبدونهم كعبادته .. و من الواضح انهم فعلوا ذلك بقصد ان يهتدوا لا ان يضلوا عن سواء السبيل، و من أجل هذا تكون اللام في ليضلوا لام النتيجة و العاقبة، و يكون المعنى ان المشركين عبدوا الأصنام بقصد ان يهتدوا بها، و تقربهم من اللّه زلفى، فكانت النتيجة الضلال و الهلاك و البعد عن اللّه و رحمته، فاللام هنا تماما كاللام في: لدوا للموت و ابنوا للخراب ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾.

أمر اللّه نبيه ان يحذر المشركين من سوء العاقبة و المصير، و يقول لهم: ان متاع الدنيا قليل و ان راق لكم، و الآخرة خير لمن اتقى .. و لكن .. هل تجدي لغة الحق و الواقع مع الذين لا تحركهم الا الأرباح و المكاسب! ﴿ قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ التي تذكر المصلي باللّه و تحذره من العذاب و العقاب، و تخلق فيه وازعا و رادعا عن المآثم و الجرائم، ان كان حقا من المؤمنين الصالحين ﴿ وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً ﴾. الزكاة أخت الصلاة، هذه تذكر المصلي باللّه، و تلك تقربه عند اللّه زلفى، و مر نظيره في الآية ٢٧٤ من سورة البقرة ج ١ ص ٤٢٥ ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خِلالٌ ﴾. و البيع هنا كناية عن الفدية، و الخلال الصداقة، و المعنى ان من أنفق من ماله في سبيل اللّه انتفع بهذا الإنفاق في اليوم الآخر، و من بخل به كان عليه حسرة و عذابا، و لا يجديه شيء في ذلك اليوم حيث لا فدية و لا صداقة، و مر نظيره في الآية ١٨ من سورة الرعد.

[الآيات ٣٢ الى ٣٤]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ ﴿٣٣﴾ وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

اللغة

دائبين أي دائمين، يقال: فلان دأب في العمل إذا استمر فيه. و الكفار شديد الكفران و الجحود للنعم.

الإعراب

رزقا مفعول أخرج، و من الثمرات حال مقدم، و صاحب الحال الرزق. و دائبين حال من الشمس و القمر. و المفعول الثاني لآتاكم محذوف أي آتاكم شيئا من كل ما سألتموه.

المعنى

كل ما جاء في هذه الآيات الثلاث قد مر ذكره، فخلق السموات و الأرض ذكر في الآية ٧٣ من سورة الأنعام و غيرها، و انزال الماء من السماء ذكر في الآية ٢٢ من سورة البقرة، و الآية ١٨ من سورة الرعد، و جريان الفلك جاء في الآية ١٦٤ من سورة البقرة، و تسخير الشمس و القمر في الآية ٢ من سورة الرعد، و الليل و النهار في الآية ٦٧ من سورة يونس .. و قد عدّد سبحانه الكثير من نعمه على عباده في الآية ٣ و ٤ من سورة الرعد، و الآية ١٤٣ و ١٤٤ من سورة الأنعام و غيرها فيما سبق مرارا مع الشرح و التفسير، و أعاد سبحانه ذكرها أو ذكر طرف منها هنا لمناسبة الاشارة في الآية الى الذين بدلوا نعمة اللّه كفرا. و يتلخص معنى هذه الآيات الثلاث بأن نعم اللّه و آلاءه لا تعد و لا تحصى، منها خلق السموات و الأرض، و انزال الماء، و تسخير الفلك و الشمس و القمر و الليل و النهار، و الإفضال على الناس بشيء مما سألوه، و ما لم يسألوه و مع ذلك يكفر الكثير منهم أو أكثرهم بأنعمه، و يعبدون ما لا ينفعهم و لا يضرهم.

هل الإنسان مجرم بطبعه؟

و بمناسبة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ نشير الى ان علماء النفس اختلفوا في الإنسان: هل هو مجرم بطبعه، و انه ولد ليعتدي على من لم يعتد عليه، و يكفر بأنعم من أحسن اليه؟ .. و في سنة

١٨٣٢ اجتمع في امريكا ٥٢٨ عالما من علماء النفس، و ناقشوا هذه القضية، فذهب أكثرهم الى انه لا دليل على ان الإنسان لا مفر له من ارتكاب الجرائم. و خالف في ذلك جماعة منهم.

أما نحن فإنا نؤمن بأن الإنسان لم يولد مجرما، و الا سقط عنه التكليف، و كان حسابه و عقابه ظلما و جورا، و الأديان و الشرائع لغوا و عبثا، حيث يكون، و الحال هذه، كريشة في مهب الريح .. و انما يصير الإنسان مجرما بالعوامل الخارجية كالجوع الذي يحوله الى لص، و المغريات التي تدفع به الى الخيانة و العمالة، و ما الى ذلك .. و هنا يقع التفاوت بين أفراد الناس في أنفسهم، فبعض النفوس تضعف أمام المغريات، و تتغلب عليها الشهوات، كمن يملك الطعام، و مع ذلك يطلب المزيد منه بكل وسيلة، أو يزني و له زوجة تغنيه عن الحرام، أو يكتم الحق أو يجحد النعم حرصا على جاه أو أية منفعة من متاع الدنيا، و ليس من شك ان هذا قد أذنب و أجرم بإرادته، لا بطبيعته، و هو المقصود بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾. و من الواضح ان مجرد الميل الى الحرام لا يجعله حلالا، ما دامت الفرصة سانحة للصبر و التغلب على هذا الميل. و تقدم ما يتصل بهذا البحث عند تفسير الآية ٩ من هود.

[الآيات ٣٥ الى ٤١]

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَ ما نُعْلِنُ وَ ما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَ تَقَبَّلْ دُعاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ ﴿٤١﴾

الإعراب

البلد عطف بيان من هذا. و آمنا مفعول ثان لأجعل. و المصدر من أن نعبد مجرور بعن محذوفة. و من ذريتي «من» للتبعيض أي بعض ذريتي. و عند بيتك متعلق بمحذوف صفة لواد. و ليقيموا الصلاة اللام للتعليل، و يقيموا منصوب بأن مضمرة بعد اللام، و المصدر مجرور بها متعلقا بأسكنت. على الكبر حال من الياء في «لي». و من ذريتي عطف على الياء في اجعلني أي و اجعل من ذريتي مقيم الصلاة.

المعنى

﴿ وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً ﴾. ابراهيم و إسماعيل هما اللذان بنيا البيت في مكة المكرمة: ﴿ وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ ﴾ (١٢٧ البقرة). و دعا ابراهيم ربه ان يجعل الناس آمنين في مكة على أنفسهم، و استجاب دعوته، و كان الاعداء و ما زالوا يتلاقون فيها، و لا يخاف بعضهم بعضا، و الى هذا أشار سبحانه بقوله: ﴿ أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ (٦٧ العنكبوت).

﴿ وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ ﴾. و محال ان يعبد ابراهيم الأصنام، و كيف و قد حطمها بيده، و قال لقومه: ﴿ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (٦٧ الأنبياء). و لكن رسل اللّه و أنبياءه- على عصمتهم- يخافون المعصية. و هذا الخوف من أعظم الطاعات، و من رأى نفسه تقيا نقيا فقد فتح النوافذ فيها للشيطان.

الأنبياء و استجابة الدعاء

و تسأل: ان ابراهيم طلب من اللّه ان يجعل أبناءه مؤمنين، لا يشرك واحد منهم باللّه، و ابراهيم نبي مرسل مستجاب الدعوة، مع العلم بأن الكثير من ذريته قد أشركوا و عبدوا الأصنام، و منهم كفار قريش الذين هم من نسله و سلالته؟.

و نقل الرازي عن المفسرين خمسة أجوبة، و لكن السؤال ما زال قائما يطلب الجواب عنه .. و الذي نراه ان حقيقة الدعاء ما هي إلا طلب و رجاء، سواء أ كان من نبي أم غير نبي، و قد تستدعي حكمته تعالى الاستجابة فيستجيب، أو الرفض فيرفض، و ليس معنى عدم الاستجابة ان الداعي لا وزن له عند اللّه كي يضر ذلك بمقام النبوة، و عصمة الأنبياء على فرض عدم الاستجابة لدعائهم .. كلا، فإن رفض السؤال بمجرده لا ينبئ عن غضب المسئول على السائل، بل قد يدل على حبه له، و حرصه على مصلحته، فلقد طلب نوح عليه السلام من اللّه نجاة ولده من الغرق، فأجابه المولى بقوله: ﴿ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (٤٦ هود). و بكلام آخر ان دعاء النبي لا يعبر إلا عن حبه و رغبته، و ليس من شك ان الأنبياء يحبون و يرغبون في ايمان الناس جميعا و هدايتهم الى الحق، و مع ذلك قال اللّه لسيد المرسلين الأعظم: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (٥٦ القصص). و لو تحقق كل ما يرغب فيه الأنبياء لما وجد على ظهرها كافر و لا مجرم، و لما قاسى رسل اللّه من الكفار و الفجار ما قاسوه، و بالخصوص سيدهم و خاتمهم الذي قال: ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت.

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ﴾. ضمير انهن يعود الى الأصنام، و المعنى ان كثيرا من الناس ضلوا بسبب عبادة الأصنام، تماما كما تقول: المال أطغى فلانا أي انه طغى بسببه ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي ﴾ من ذريتي ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ نسبا و دينا ﴿ وَ مَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾. من عصى ابراهيم عليه السلام فهو بريء منه، حتى و لو كان أقرب الناس اليه، لأن من عصاه فقد عصى اللّه، و لكن ابراهيم حليم اوّاه كما وصفه الذي اختاره خليلا و اصطفاه. و من أجل ذلك لم يطلب العذاب للعصاة من ذريته و غير ذريته، بل ترك أمرهم للّه و مغفرته و رحمته .. و من الواضح ان العقل لا يمنع من العفو عن المشركين، لأن العذاب على الشرك حق للّه، ان شاء عذب، و ان شاء عفا، و لا ضرر بالعفو على أحد. أما قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ فهو دليل سمعي، و نحن نتكلم عن حكم العقل. أنظر تفسيرنا لهذه الآية في ج ٧ ص ٣٤٢.

﴿ رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾. قال ابراهيم عليه السلام هذا حين ترك إسماعيل و أمه هاجر بمكة، و هي واد مقفر لا ماء فيه و لا كلأ، و لا شيء الا بيت اللّه تقام فيه الصلوات، و تردد التلبيات، و لهذه الغاية أسكن ابراهيم بعض أهله و ذريته في هذا المكان المقفر المجدب .. و لكن الإنسان لا يحيا بالصلاة وحدها، بل لا بد له من الخبز أيضا، و لذا قال ابراهيم: ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾. و إذا لم يكن عند بيت اللّه زرع و لا ضرع فلتتوافد الناس عليه للعبادة أو التجارة، و معهم الخبز و الفاكهة، و عندها تأكل ذرية ابراهيم و يصلّون و يشكرون. قال موسى عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (٢٤ القصص). قال الإمام علي عليه السلام: «و اللّه ما سأله الا خبزا يأكله».

و قال شاعر فقيه:

الفضل للخبز الذي لولاه ما كان يوما يعبد الإله

﴿ رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَ ما نُعْلِنُ وَ ما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ ﴾. بعد أن سأل ابراهيم اللّه أن يتوافد الناس الى بيته يحملون لأهله الخبز و الفاكهة ليعبدوا اللّه حق عبادته بقوة و نشاط، بعد هذا قال للّه: ما سؤالي و طلبي الا تضرعا لك و خشوعا، و الا اعترافا بأنك الخالق الرازق، أما حاجتنا و مصالحنا فأنت أعلم بها منا، سألناها منك، أو لم نسأل .. فقول ابراهيم: ما نعلن معناه ما نسأل و نطلب، و معنى ما نخفي ما لم نسأل و نطلب.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ ﴾. هذا الحمد من ابراهيم يتضمن طلب العون من اللّه لولديه إسماعيل و اسحق، لأن ابراهيم قد تقدمت به السن و دنا

أجله، فأوكل أمر أهله الى رعاية اللّه و عنايته، و لم يبن لهم الدور، و يكنز مال اللّه، و يحرمه عيال اللّه حرصا على رفاهية ذويه و أبنائه.

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَ تَقَبَّلْ دُعاءِ ﴾. الصلاة التي عناها ابراهيم ليست من نوع هذه الصلاة التي نصلّيها نحن، بل من نوع التي عناها اللّه بقوله: ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ ﴾ (٤٥ العنكبوت).

و من هنا قسّم الفقهاء الصلاة الى قسمين: صلاة يؤدى بها الواجب فقط، و صاحبها غير مأجور. و صلاة يؤدى بها الواجب، و صاحبها مأجور عند اللّه، و هي التي تثمر الإخلاص في العمل، و الصدق في معاملة الناس.

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ ﴾. عند تفسير الآية ٧٤ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢١٢ ذكرنا اختلاف السنة و الشيعة في ايمان أبي ابراهيم الخليل٧، و مما قلناه: ان هذا النزاع في هذه القضية و أمثالها نزاع عقيم، و ان المطلوب من المسلم هو الاعتقاد بعصمة الأنبياء، أما الايمان بأن آباءهم كانوا مؤمنين فليس من عقيدة الإسلام في شيء، و لو قال قائل: أنا أومن باللّه و وحدانيته و بالأنبياء و عصمتهم، و بالبعث و الحساب، و لا أثبت و لا أنفي الايمان عن آباء الأنبياء، لو قال هذا أي قائل نقول له: أنت مسلم لك ما للمسلمين و عليك ما عليهم.

[الآيات ٤٢ الى ٤٥]

وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ ﴿٤٣﴾ وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَ وَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ ﴿٤٤﴾ وَ سَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَ ضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ ﴿٤٥﴾

اللغة

شخص الشيء أي ارتفع، و تشخص الأبصار تحد النظر، و لا تغمض لهول ما ترى. و هطع أقبل مسرعا خائفا، و مهطعين مسرعين الى الداعي. و مقنعي رؤوسهم جمع مقنع بضم الميم و كسر النون، و هو

الذي يرفع رأسه كثيرا من الهول. و لا يرتد اليهم طرفهم أي لا يطرفون بعيونهم من الخوف و الحذر. و الهواء في قوله: و افئدتهم هواء، كناية عن ان أفئدتهم ليست بشيء. و الزوال الانتقال.

الإعراب

ليوم على حذف مضاف أي يؤخرهم لجزاء يوم أو عذاب يوم. و مهطعين حال من ضمير يؤخرهم، و مثله مقنعي رؤوسهم، و كذا جملة لا يرتد. و الناس مفعول أول لأنذر و يوم مفعول ثان على حذف مضاف أي عذاب يوم، و لا يجوز ان يكون يوم هنا ظرفا لأن الانذار لا يكون في يوم القيامة. و نجب مجزوم بجواب الطلب، و هو أخرنا. و فاعل تبين محذوف أي تبين حالهم لكم. و كيف مفعول فعلنا بهم. و قال النحاة: ان كيف لا تكون إلا مفعولا أو حالا أو خبرا.

المعنى

﴿ وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ ﴾. الظلم أنواع: فالكفر و الشرك باللّه ظلم، و الاعتداء على حق من حقوق الناس ظلم، سواء أ كان الحق ماديا أم أدبيا، أيا كان المعتدى عليه بخاصة إذا كان ضعيفا، لأن ظلم الضعيف أفحش الظلم، و من أعان ظالما أو رضي بفعله أو سكت عنه، مع القدرة عليه أو على التشهير به فهو شريك له، و من أجل هذا لا يغفل سبحانه عما يعمل الظالمون. و تكلمنا عن الظلم عند تفسير الآية ١٤٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٤٧٩، و نعطف على ما قلناه هناك: ان اللّه سبحانه ما أرسل الرسل، و لا أنزل الكتب إلا لمحاربة الظلم و الظالمين .. و قد وصف اللّه نفسه في كتابه العزيز بأنه ذو انتقام و لولا الظلم لما كان لهذا الوصف عين و لا أثر، و مهما امتد أمد الظالم فان اللّه سينتقم منه بأشد و أعظم، قال الإمام٧: «سينتقم اللّه ممن ظلم مأكلا بمأكل و مشربا بمشرب» فمن ظلم إنسانا بكلمة واحدة كان جزاؤه مقامع من حديد، فكيف بمن حول الأرض إلى جحيم، و أقام في كل جزء منها قاعدة للموت، و مخزنا لأسلحة الفناء و الدمار؟.

﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ ﴾. أبصارهم شاخصة لا تغمض و لا تطرف من الدهشة و الذهول .. و يسرعون في مشيهم و لا يلوون على شيء تلبية لدعوة الداعي، رافعين رؤوسهم إلى السماء لا يرى واحدهم موطئ قدمه من الدهشة و الذهول، أما قلوبهم فهواء و خواء، قد اذهب الرعب كل ما فيها من شعور و ادراك .. و هكذا تجزى كل نفس بما كسبت.

﴿ وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾. أرسل اللّه أنبياءه و رسله الى عباده مبشرين بثواب اللّه، و منذرين من عقابه، و كان المجال أمامهم فسيحا و عريضا حين التبشير و الانذار، و لكن أبى أكثر الناس الا نفورا، و قالوا لرسلهم: أموت

ثم بعث ثم نشر؟. ان هذا الا أساطير الأولين .. حتى إذا وقفوا بين يدي اللّه و انكشف لهم الغطاء قالوا: ربنا أمهلنا بعض الوقت، فنسمع و نطيع لك و لرسلك .. قالوا هذا حين فات الأوان. و قد أمر اللّه نبيه محمداﷺ ان ينذر المكذبين، و يحذرهم من هذا اليوم الذي لا اقالة فيه و لا رجعة قبل ان يصلوا اليه، و ان يخبرهم بمآلهم لو أصروا على العناد، و انهم سيقولون للّه: أخّرنا قليلا لنستجيب لدعوة الرسل، و قد أدى النبي رسالة ربه، فأخبر و حذر، و لكن غلبت عليهم المطامع و المنافع، فكانوا من القوم الخاسرين.

﴿ أَ وَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ وَ سَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَ ضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ ﴾. هذا الكلام بكامله يخاطب اللّه به غدا المكذبين الذين يقولون للّه: أعدنا ثانية الى الدنيا لنتبع الرسل، و محصل ما يجيبهم به، عظمت كلمته، انه يسألهم سؤال توبيخ و تقريع: ألم تقسموا و أنتم في الحياة الدنيا انه لا انتقال من دار الدنيا الى دار الآخرة، و انه لا جنة و لا نار .. يشير بهذا سبحانه الى ما حكاه عنهم في الآية ٣٨ من النحل: ﴿ وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ﴾. و بعد هذا السؤال أو التوبيخ يقول سبحانه للمكذبين أيضا: لقد علمتم حال من كان قبلكم، كيف أهلكناهم لما عتوا، و أسكنّاكم مساكنهم، و حذرناكم أن تفعلوا فعلهم، و ضربنا لكم بهم الأمثال، فلم تتعظوا، و تعتبروا .. و الآن حيث لا رجعة و لا تأير تقولون: أخرنا قليلا! .. فأي منطق هذا؟ .. و هل أرسل اللّه إليكم من قبل رسل لعب و هزل، حتى يعيدكم ثانية، و يرسل إليكم رسل حق وجد؟ ..

[الآيات ٤٦ الى ٥٢]

وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

اللغة

برزوا ظهروا. و مقرنين مشدودين. و الأصفاد جمع صفد، و هو القيد. و سرابيل جمع سربال، و هو القميص. و القطران نوع من الدهن تدهن به الإبل إذا جربت، و للنار فيه اشتعال شديد. و تغشى وجوههم النار تعلوها و تغطيها، و البلاغ الكفاية، و منه البلاغة، و هي البيان الكافي.

الإعراب

و عند اللّه مكرهم مبتدأ و خبر على حذف مضاف أي علم مكرهم. و ان كان مكرهم نقل البيضاوي عن الكسائي انّ «ان» مخففة من الثقيلة و مهملة و جاءت اللام بعدها في لتزول لتفصل بين ان النافية و ان المخففة. و مخلف وعده رسله، مخلف مفعول ثان لتحسبن، و في الوقت نفسه يحتاج «مُخْلِفَ» الى مفعولين لأنه اسم فاعل بمعنى أخلف، و قد أضيف الى المفعول الثاني، و هو وعده، و مفعوله الأول رسله، و الأصل مخلف رسله وعده، و مثله هذا معطي درهم زيدا، و الأصل هذا معطي زيد درهما. يوم تبدّل «يوم» مفعول لفعل محذوف أي اذكر يوم تبدّل. و الأرض مفعول أول نائب عن الفاعل، و غير مفعول ثان لأن تبدّل هنا بمعنى تجعل، و السموات بالرفع عطف على الأرض الأولى، و غير السموات محذوفة لدلالة ما قبلها عليها. و مقرنين حال من المجرمين لأن ترى هنا بصرية، و ليست قلبية لتتعدى الى مفعولين.

المعنى

﴿ وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ ﴾. ما أرسل اللّه سبحانه رسولا الى قومه الا مكر به و تآمر عليه أهل الفساد و الضلال من عهد نوح الى عهد محمدﷺ: ﴿ وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ (١١٢ الأنعام)، و لا تنحصر أسباب العداء بالتضاد بين الايمان و الإلحاد، و بين الشرك و التوحيد .. كلا، فإن هذا العداء مظهر لمعنى كلي و مبدأ عام، و هو العداء بين دعوة الحق و أهل الباطل في كل زمان و مكان .. و بالتعبير الشائع في هذا العصر: العداء و التناقض بين الثورة و الثورة المضادة .. و أيا كان سبب المكر و التآمر، و مهما بلغ من القوة و الشدة، حتى و لو أزاح الجبال الرواسي من مواضعها فإن اللّه عليم به و يجزي أهله بما يستحقون. و نشير بهذه المناسبة الى ان كثيرا من الرجال ينعتون النساء بالكيد و المكر، و يستشهدون بالآية ٢٨ من سورة يوسف: «ان كيدكن عظيم» .. و للنساء ان يجبن الرجال بأن مكرهم لتزول منه الجبال و يستشهدن بهذه الآية .. هذا، الى ان وصف النساء بالكيد جاء في القرآن الكريم على لسان عزيز مصر، أما وصف الرجال بالمكر الذي يزيل الجبال فقد جاء على لسان اللّه بالذات. و من الطريف ان بعض الرجال يستدل على مكر النساء و شدته بالآية التي نزلت في حق

الرجال، و يحرّف لفظها بوضع «هن» مكان «هم» جهلا و تسرعا، و يتلو الآية هكذا: ان مكرهن لتزول منه الجبال.

﴿ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ بنصرة الحق و أهله، و خذلان الباطل و أنصاره، و يشير سبحانه بوعده الرسل الى قوله: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢١ المجادلة). ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ ﴾ ينتقم لأولياء الحق من أولياء الباطل ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ ﴾ غير السموات، و ذلك بأن تتحول الأرض الى غبار منتشر كما في الآية ٦ من سورة الواقعة: ﴿ فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا ﴾. أما كواكب السماء فإنها تتساقط و تتناثر كما جاء في سورة القيامة و التكوير و الانفطار.

﴿ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ ﴾. على المكشوف لا باب و لا ثياب، و مما جاء في أرض المحشر و صفاتها: انها بيضاء قاع صفصف، لا أشجار فيها و لا جبال و لا أودية، أرض بيضاء كالفضة لم يسفك عليها دم، و لم ترتكب فيها خطيئة، و تصبح السماء كالمهل- أي عكر الزيت- و تذهب شمسها و قمرها و نجومها، و تصير الجبال كالعهن- أي الصوف المنفوش-.

جهنم و الأسلحة الجهنمية

﴿ وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَ تَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾. ذكر اللّه سبحانه في كتابه صورا لعذاب أهل النار، قراءتها تبعث الرعب في القلوب و النفوس، و القشعريرة في الجلود و الأعصاب، فكيف بمن يذوق و يختبر .. و من هذه الصور حشر المجرمين مكبلين بالقيود، يلبسون ثيابا من مادة شديدة الالتهاب، و على وجوههم غطاء و غشاء من نار، أما طعامهم فمن شجر الزقوم، و شرابهم من ماء الصديد، هذا و هم في جحيم لا يبقي و لا يذر، و يرمي بشرر كالقصور و الجبال.

و تسأل: ألا يتنافى هذا النوع من العذاب مع حلم اللّه و رحمته، وجوده و رأفته؟.

ألا يكفي لجزاء هذا الإنسان الضعيف بجلده و لحمه و دمه بعض هذا الجحيم الأليم؟.

و أجاب بعضهم عن هذا السؤال بأن ما ذكره سبحانه من أنواع العذاب و صوره ليس على وجه الحقيقة، و انما أراد به تخويف الناس و ردعهم عن الجرائم. و لو ان هذا المجيب رجع الى القرآن الكريم لوجد ان اللّه سبحانه قد سبق في علمه ان الكثير من عباده سوف يمر بخاطرهم هذا السؤال فأجاب عنه سلفا، و بيّن الحقيقة في العديد من آياته، منها ما ذكره هنا بعد ذكر القيود و سرابيل القطران بلا فاصل، و هو قوله: ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ ﴾. و منها ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٤٦ الأعراف).

و قوله: «لا يظلمون فتيلا .. و ما ربك بظلام للعبيد». و منها: ﴿ وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ (١٦٠ الأنعام): ﴿ وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها ﴾ (٢٧ يونس). و منها: ﴿ فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ ﴾ (١٩٤ البقرة).

و معنى هذه الآيات بمجموعها ان الجرائم و السيئات على أنواع: منها الصغيرة الحقيرة، و منها الكبيرة الخطيرة، و انه تعالى قد أعد لكل جريمة عقوبتها على أساس الحق و العدل، لا تزيد، و قد تخفف حسبما تستدعيه حكمته البالغة، و قوله تعالى: ﴿ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها ﴾ صريح في ذلك، بل و حصر أيضا. أجل، هنا سؤال ينبغي أن يسأله كل عاقل، و هو: من الذي يستحق هذا النوع من العذاب الشديد الأليم؟. و هل هناك جريمة تستوجب كل هذا النكال العظيم الدائم الذي له أول و ليس له آخر، كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها ﴾ (٣٦ فاطر).

الجواب: نعم، ان في الناس مجرمين يستحقون هذا النوع من العذاب الأليم و أكثر منه أيضا .. و من هؤلاء الذين يحاربون الحق أو يكتمونه و هم يعلمون، سواء أ كان هذا الحق للّه أم للناس .. و أعظم منهم جرما تجار الحروب الذين أعدوا لسفك الدماء و تدمير الحياة الأسلحة الجهنمية، كالقنابل الذرية و الهيدر و جينية و المواد السامة التي تقتل المئات بل و الملايين في دقائق معدودات. ان أية عقوبة يعاقب بها السفاحون فهي دون ما يستحقون .. و ليست السلاسل و الأصفاد و سرابيل النيران بشيء في جانب تدمير البلاد و تشريد العباد و تشويههم و تقتيلهم بمئات الألوف .. ثم هل الشرر المتطاير من جهنم أسوأ أثرا من القنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما مع العلم بأن نسبتها من حيث الأثر الى ما يملكه السفاحون الآن من القنابل كنسبة الواحد الى الألف؟. و هل طعام الزقوم، و ماء الصديد أشد فتكا بالأجسام و الأرواح من سلاح الجراثيم الذي يستعمله الآن أعداء اللّه و الانسانية في فيتنام، و من قبل في كوريا؟.

و سبق عند تفسير الآية ٢٧ من هذه السورة ان الإنسان إذا مسته ذرة من سلاح الجراثيم تقلصت عضلاته، و برزت عيناه، و مات في الحال .. فهل بعد هذا يشك عاقل في ان الحلم بأصحاب هذا السلاح ظلم، و ان الرحمة بهم إثم، و انهم لو عوقبوا بأشد من عذاب جهنم لكان عقابهم حقا و عدلا؟. هل يستكثر أي نوع من أنواع العذاب على من لا يروي ظمأه الا دماء الألوف، و لا يشبع جوعه الا أقوات الملايين و مقدراتهم؟. و لو لم يكن دليل على البعث و الحساب الا وجود هذه المظالم لكفى، إذ لو كانت الدنيا هي كل شيء، و ليس من وراءها عالم آخر ترد فيه الحقوق الى أصحابها و يجد كل ظالم الجزاء الذي يستحقه لكان الموت خيرا من الحياة، و الظلم أفضل من العدل.

﴿ هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ ﴾. هذا اشارة الى القرآن بكل ما يحويه، و منه ما تقدم من التهديد و الوعيد، و المراد بالبلاغ الكفاية، و المعنى ان اللّه سبحانه أنزل القرآن على نبيه، و هو كاف واف بكل ما يحتاج اليه الناس من أمر دينهم و دنياهم، و هو أيضا يعلمهم بوحدانية اللّه و عدله، و ينذرهم من مخالفة أمره و نهيه.